(البراديغم المفقود في بناء الحضارة الإنسانية)

-سؤال الذّات المُتحضرة في فكر مالك بن نبي-

أ/ محمد بومدين جامعة تلمسان – الجزائر

الملخـص:

إن التفكير في الأزمة الحضارية يعتبر من قبل المفكر الراحل مالك بن نبي يعتبر في حد ذاته موجة حاولت أن تصقل الطاقات الحضارية والتي تعايش الفرد من خلال واقعه، سنحاول من خلال مشروع المفكر مالك بن نبي أن نوازي بين الفكرة والواقع الذي تنبت فيه ومنه، وسنحاول أن نقارب بين فكر الرجل والواقع العربي الذي عرف مؤخرا بما يسمى بـ "الربيع العربي" وهي الرغبة التي عمل بها الرجل أثناء حياته، خاصة لما قال لأخته " إن هؤلاء لا يفهمون فكري ولن يكون له صدى الا بعد أربعين سنة أو أكثر".

حيث سنبين من خلال مقالنا هذا جملة التفاصيل التي تنتاب العالم العربي اليوم، جراء سقوط لعديد من الأنظمة السياسية التي لم تتوارى قط ان بينت عن حال العفن المعيش داخل أجهزتها، وسنتطرق كذلك إلى جملة التفاصيل السوسيوحضارية التي غدت تؤسس للبيا التشريعي والمفاهيمي الرؤيوي داخل الحضارة الإسلامي.

إن سبر أغوار التفكير الحضاري عند مالك بن نبي ومقاربته بالعالم العربي اليوم، خاصة مقاربته بما يسمى " بالربيع العربي"، سنحاول تبيان الخلل والعلل وتقديم الحل لكل مشكل، مبينين المخرج المرغوب من خلال فكر المفكر مالك بن نبي.

الكلمات المفتاحية :

الإنسان، الحضارة، سؤال الذّات، البنية الحضارية، اللّعبة الأنثروبولوجية، صناعة الإنسان، اللقاء الحضاري، البراديغم المفقود، أخلقة الذات.

Résumé:

La pensée de la crise civilisationnelle est considérée par le défunt penseur Malek ben Nabi comme une vague qui a tenté d'affiner les énergies de la civilisation et la coexistence de l'individu par sa réalité. Nous tenterons par le projet du penseur Malek ben Nabi entre l'idée et la réalité qui en résulte, Nous essayons d'établir un lien plus étroit entre la pensée des hommes et la réalité arabe, qui a récemment été connue sous le nom de printemps arabe. C'est le désir que les hommes ont fait pendant leur vie, surtout quand ils ont dit à leur soeur: «Ces gens ne comprennent pas intellectuellement et ne résonneront que quarante ans ou plus».

Dans cet article, nous expliquerons les détails du monde arabe aujourd'hui, en raison de la chute de nombreux régimes politiques qui n'ont jamais manqué de montrer l'état de la moisissure dans leur corps. Nous discuterons également des détails sociologiques qui sont devenus la base de la vision législative et conceptuelle au sein de la civilisation islamique.

L'exploration de la pensée culturelle de Malek ben Nabi et son approche du monde arabe d'aujourd'hui, en particulier son approche du «printemps arabe», tenteront de montrer le déséquilibre et la solution et apporteront la solution à chaque

problème en montrant le résultat souhaité par la pensée du penseur Malek ben Nabi.
Mots-clés:

humain, civilisation, auto-question, structure de civilisation, jeu anthropologique, industrie humaine, rencontre culturelle, paradigmes perdus, création de soi.

مقدمة:

تعتبر الدراسات الفلسفية والفكرية للحضارة الإسلامية التي تؤرخ للعقل العربي، بمثابة المحاولات التي أتيحت للعقل العربي، منذ لقديم إلى يومنا من جهة محللة ومن جهة ناقدة ومن جهة مركبة لهذا العقل وهذه الملكة المفاهيمية، التي انقسم المفكرون حولها الى جملة من الآراء والأفكار والمحاولات التي أتاحت للباحثين التعمق في وصف حال الأمة العربي الإسلامي، وتشريح مكوناتها ومركباتها وأسبابها الفكرية التي غدت تؤسس لمنظومتها الإيديولوجية مما تحيل إلى ترجمة هذه المنظومة والمرجعية إلى واقع معيش، ونحياه به وفيه، تلكم هي الثقافة التي أصبح لأموات فيها يحكمون الأحياء، وهي المرجعية التي حاولت أن تؤسس للعقل المعاصر والذي يحضى بنوع من الفهم على سابق العهد مما عرف لدى الأسلاف، خاصة من خلال التأثر الصريح والواضح بالزخم الرهيب المنتج في الحضارة الغربية، غير أن هناك بعض الأمور التي قد تكون بالضارة وتعود بالسلب على المتأثر، ويحيلنا هذا إلى جملة التصورات اللاعقلانية التي أسست للعقل العربي المعاصر، هناك من المفكرين الذين تأثروا بواقع الأمة وعكف لأجل ان يبين هذه الازدواجية السوسيوثقافية في الحضارة العربية نذكر المفكر الجزائري الراحل مالك بن نبي رحمه الله، حيث سنحاول ان نستعين بفكره لكي نفهم الحال المعيش للأمة العرب، أو بمعنى آخر " كيف هو فكر " مالك بن نبي اليوم "، في ظل ما نراه م حياة متقلبة سياسيا و فكريا و دينيا وحتى جنسيا، مما يحل الأمة إلى إعلان ناقوس الخطر، والاستشراف المستقبلي للأمة العربية، خاصة في ظل تفكك القيم وتهديم الكيان الاجتماعي، وسؤالنا المطروح ماذا لو كان "مالك بن نبي" اليوم لازال على قيد الحياة، يا ترى كيف سيفكر في الحياة الواقعية التي يعيش الفرد العربي في بيئته؟ ثم كيف يمكن مقاربة فكر مالك بن نبي للواقع للعربي خاصة في ظل ما يسمى اليوم بالربيع العربي؟

وماهي الآليات التي يمكننا أن نفهم من خلالها الحقيقة الواقعية لبيئتنا الاجتماعية ومنها مقاربة كل طرح قدمه مالك بن نبي لهذا الواقع؟

مقاربات مفاهيمية في مفهوم الحضارة:

لو عدنا إلى سابق عهد الفكر السوسيولوجي الذي حاول أن يؤسس لفكرة الحضارة والمدنية، والتفكير في ماهو مطلوب للخروج من الواقع المعيش سنجد بأن الرؤية الفكرية القديمة كانت تعمل على البناء الأساسي المتعلق بالإنسان وعلى سبيل المثال لا الحصر سنأخذ هذه النماذج كمدخل لفكر مالك بن نبي، ومحاولة التعريج عنه في الفكرة وعلاقتها بالواقع، وإذا أخذنا ابن خلدون كنموذج للفكر الحضاري السابق للمفكر الجزائري مالك بن نبي.

ابن خلدون: يرى بأن الحضارة هي "الوصول إلى منتهى العمران، أي إلى منتهى التطور الثقافي الشخصي المحلي للجماعة، والدخول في دور الحضارة وهو دور الرقي الاجتماعي الثابت الذي لا يتطور، وهو لهذا مرحلة الثبات على مستوى من الرقي لا يبقى بعده إلا الانحدار وهو لذا يقول عن الحضارة هي نهاية العمران وخروجه إلى الفساد"[1]

يتوافق التعريف الخلدوني مع تعريف الحضارة في الحضارة الإسلامية الذي يعني "أن الحضارة مفهوم كامل قوامه الحركة المادية والمعنوية في نفس الوقت وحياطة التقدم المادي بالأخلاق والتقوى وتوجهه إلى صالح الإنسان وحماية المجتمعات من الفساد والانحراف"[2]

مالك بن نبي يقول "إن حضارة ما هي نتاج فكرة جوهرية تَطبع على مجتمع في مرحلة ما قبل التحضر الدفعة التي تدخل به التاريخ. ويبني هذا المجتمع نظامه الفكري طبقا للنموذج الأصلي لحضارته"[3] "وكل حضارة تصنع هكذا نماذج اجتماعية ووجوها تقليدية تتعاقب في الأجيال، تضع عليها طابعها، وترسم على ملامحها ما يعبر عن رسالتها الخاصة"[4]

1- الإنسان الحضاري و مقوماته وكذا إمكانات النهضة الحضارية:

لقد حاول المفكر الجزائري " مالك بن نبي " أن يكرس فهمه ويعتكف في مجال البحث الكري والتاريخي وكذا الحضاري ليفهم البعد الإستراتيجي الذي أضحى يركب البناء الحضاري للأمة الإسلامية ومن جملة الدراسات التي قام بتقديمها طوال حياته كانت تنصب حول الإجابة عن سؤل النهضة الذي أصبح هاجسا في أوساط المفكرين العرب، حيث إختلفت الرؤى، والأفكار وكذا حول أساب إخلاف الأمة الإسلامية، ولماذا كان هذا التخلف بالذات في جيل معين دون غيره من الأجيال السالفة ، وهو السؤال الذي حير مالك بن نبي وحاول أن يجب عنه، ولقد وجد أن معرفة الأساب هي طريق نحو فهم النتائج المتحصل عليها والمتوصل إليها عن طريق تقديم كيفية الخروج من هذه الأزمة الحضارية، وعلى هذا الأساس يعتبر مالك بن نبي أن من بين الأساب التي أدت إلى سقوط الحضارة الإسلامية، كما أن هذا الأخير حاول أن يقر لنا بأن الأمة تمتلك جملة من الإمكانيات ما، حاولت أن تدخل ضمن نطاق فهم الواقع الاجتماعي وكذا الثقافي والحضاري [5]

ويذهب بنا "مالك بن نبي" إلى توضيح أهم ما يمكن أن يساعد الحضارة الإسلامية خاصة والإنسانية الكونية عامة في أنها تحاول أن تدفن طاقاته ومقدراتها، وكل هذا يسهم بشكل كبير في قتل الإنسان لذاته بل يصبح على حد تعبير" إريك فروم " إنسان لا يعيش لذاته " والمجتمع الإسلامي يعاني في الوقت الحاضر بصورة خاصة من هذه الإتجاهات لأن نهضته لم يخطط لها، ولم يفكر بها بطريقة تأخذ باعتبارها عوامل التبديد والتعويق ،فمثقفو المجتمع الإسلامي لم ينشأ في ثقافتهم جهاز للتحليل والنقد إلا إذا ما كان اتجاه تمجيدي يهدف إلى إعلاء قيمة الإسلام"[6]

ويذهب مالك بن نبي إلى نقطة المقارنة بين ما نملك كأمة وبين ما لم نملك ، وبين ما يمكن أن يكون عائقا وما لا يمكن، وبين ما يجعلنا أمة في أعلى عليين أو عكس ذلك، حيث يعتبر مالك بن نبي من خلال ما يقدم أنت الأمة الإسلامية ليست في حاجة إلى وسائل فالمشكلة هي مشكلة أفكار كما كان دوما يرددها في حياته يضرب مثال بدولة اليابان

لما كانت لها أفكار بارزة وعرفت هي الأخرى كيف تستثمر في المعطى لديها سلفا "وبدلا من أن يغرق في تمجيد أصالة فكرته لابد له أن يبحث عن وسائل فعاليتها، والمسالة مسالة مناهج وسائل وأفكار، وأن لنا في نهضة الدول، كاليابان في منتصف القرن التاسع عشر، والصين في منتصف القرن العشرين، مثالا على كيفية الاقتباس من العلوم الغربية وتوظيف حركة المجتمع في فعاليته تستمد تستمد أصالتها من نماذجها الخاصة بها "[7]

ويرد مالك بن نبي عن المفكرين الذين ينادون بأن الدولة سببا واضحا في تخلف المجتمعات و أن السياسة المنتهجة من طرف الحكام هي التي تلعب دورها الكبير في ذلك ولا ينفيها مالك بن نبي لكنه يعتبر أن " الحكومة مهما كانت ماهي الآلة اجتماعية تتغير تبعا للوسط الذي تعيش فيه و تتنوع معه، فاذا كان الوسط نظيفاً حراً ،فما تستطيع الحكومة أن تواجه بما ليس فيه، وإذا كان الوسط متسما بالقابلية إلى الاستعمار فلابد من أن تكون حكومته استعمارية "[8]

وهذا يعني أن مالك بن نبي يبرئ السياسات والحكومات والتشريعات في مستوى القابلية للإستعار وحتى المقدرات والمؤهلات التي تمتلكها الدولة من عدمها لا دخل لها مادامت ضمن نطاق عالم الأشياء وتبقى الأنفس التي تمتلك القابلية للتخلف هي الأساس في ذلك، لان ما بالنفس لا نستطيع تغييره أبدا مهما حاولنا ،ولكل امة حاولت أن تنهض يجب أن تبدأ بالتغيير على المستوى الداخلي لأن كل مقام فكري أو ثقافي أو حضاري لابد أن ينطلق من الداخل، ليواجه بعد ذلك ما هو خارج عنه في العالم الخارجي،وما في العالم الخارجي إلا انعكاس لما هو

في العالم الخارجي، لأن كل فرد لا يمكن له أن يكون ضمن نطاق التقدم نفسيا لا يكون ممتلكا لتلك القابلية الحضارية في الخارج وهو ما جاء في الآية الكريمة "إن الله لا يغيّر ما بقوم حتى يغيّروا ما بأنفسهم"[9]

بعيدا عن الأفكار الخرافية، بعيدا عن التّصورات التافهة والدرويشية التّي لا تجدي نفعا ويضرب لنا مثال مالك بن نبي بتلك النكسة العظيمة التي تمثلت في الزّردة التي أقيمت في 1936م في بلدة سطيف والتي أقامها نخبة من الساسة أين أخذ البخور والتّشعوذ مقامه الهائل والعالي في ذلك، وما هذه الزّردة إلى ابتداء لدروشة جديدة تذهب معها جهود الإصلاح هباءًا وتبيع الحروز بشكل لم يختلف عن الحروز السابق " أوراق الانتخابات " و" الحقوق السياسية " و"الأماني السباحة في الخيال".

ومع ما استجلبناه من مصر "الفاروقية "من الاسطوانات والأشرطة السينمائية والمجافية للفن والأخلاق، فاننا قد استجلبنا أيضا منها أسسا لسياستنا تقوم على أفكار تضلّل العقول البسيطة ،كان لها سوء تأثير في حياتنا، حيث اتخذتها الدروشة السياسية شعارا لها و مبدءا " ،وكررتها على مسمع من الشعب حيث رددها معها سنين طويلة صباح مساء ،"أن الحقوق تأحذ و لا تعطى "[10]. ويؤكد مالك بن نبي بان الحق ليست هدى تعطى ، ولا غنيمة تغتصب ، ولكن التغيرر يجب أن يكون وإلا ما أتى نصر الله " وأنها لشرعة الله " غيّر نفسك تغيّر التاريخ " وهو الشعار الذي اعتمده مالم بن نبي دوما في حياته لان الإنسان هو الخليفة في الأرض " وإذ قال ربك للملائكة إني جاعل في الأرض خليفة قالوا اتجعل فيها فيها من يفسد فيها ويسفك الدماء ونحن نسبح بحمدك ونقدس لك قال إني اعلم ما لا تعلمون " [11] وهو المعمر لهذه الأرض.

ويضرب لنا مالك بن نبي مثالاً رائعا في قصة حدثت للنبي صلى الله عليه وسلّم الذي لنا من قصصه رموزا ثقافية وفكرية عميقة وواسعة وعبر جلية ،يأتيه أعرابي يوما يسأله، " شحّاذ" يطلب ما يقتات به . ففي هذه اللحظة الأعرابي يطلب حقا مشروعا له في الزكاة، إذن لم يطلب شططا ،بل يطلب حقا مشروعا له في الزكاة من بيت مال المسلمين ،والنبي صلى الله عليه وسلم اعلم بهذا منا، ولكنه لا يحل هذه القضية على أساس هذا الحق بل يحلها على أساس الواجب فيشير على الصحابة " رضوان الله تعالى عليهم " الذي كانوا حول " جهزّوا أخاكم كي يحتطب "[12]

وهكذا يعلمه كيف يأكل من صنع يديه، لا أن يتكل على غيره مهما وان كان يعتبر حقا له في مال المسلمين، فيا لها من سياسة انتهجها النبي ليعلم الناس، كيف ت يكون الشعار الصحيح" الحقوق تأخذ لا أن تعطى" رغم مقدرات الأمة وإمكانياتها، فأفضل إمكانية بالنسبة لمالك بن نبي هي أن تنتهج لنفسك سبيلا تحقق به مطامحك في الدنيا لتنتقل من ما هو معطى إلى ما يجب أن يكون من خلال المنجز، هكذا يكون المرء قد خطى خطوة نحو التفكير العالمي والكوني الذي يخرج أي امة من عالم الأحلام التي تسبح في علم الخيال على إنزال الحقائق وفحصها على أرض الواقع.

المعادلة الحضارية عند مالك بن نبي وآليات الخروج من الأزمة:

يذهب مالك بن نبي إلى أن الحضارة تقوم على جملة من المبادئ والاسس التي لا يمكن ان تخرج عن جملة عناصر وتتمثل المعادلة الحضارية بالنسبة لمالك بن نبي في " الإنسان، تراب، وقت " مع الفكرة الدينية يساوي حضارة قوية قائمة على جملة من الأسس وروابط المنطقية، فتفعيل كل فكرة من خلال " هذه العناصر الثلاث التي سرعان ما انتهت إلى أمر ما لا أنها ستنتهي إلى سبيل واحد هو أن حضارة السوية، حيث اعتبر مالك بن نبي أن أول مؤسس للحضارة هو عنصر " الإنسان " هذا الأخير الذي لا يعتبر على نمط واحد بل هو مختلف تماما على إبعاد تحركه من خلال بيئته واجتماعه وكذا البنى الثقافية التي تصنعه، فهو دوما في علاقة واضحة مع الآخرين يؤثر ويتأثر، يصنع ويُصنع في المقابل هذا الأخير يختلف من منطقة إلى أخرى نومن مجال إلى آخر، فالإنسان الأروبي وأن أخذنا نموذج دولة بلجيكا حسب مالك بن نبي أننا " نجد الرجل لا يتمتع بتوازن الاقتصادي في حياته بل هناك اضطراب نتج عن عدم الملاؤمة بين حاجاته وتيار الإنتاج الصناعي المسرع، ومن هنا تنشا مشكلة اجتماعية يعانيها شعب بلجيكا "[13] وهي مشكلة وعي هذا لو ما ان قارناها بلد آخر في العالم الإسلامي ،مشكلتنا ليست مشكلة نشاط و فاعلية بل هي مشكلة "ركود " وهي مشكلة تتعلق بـ" الإنسان " ذاته الذي وجب أن يتحرك هو ضمن نطاق ثابت وفعال .

إنّ مشكلة الفرد تتعلق بمحاور ثلاث و تتمثل أساسا فيما يلي " توجيه الثقافة، العمل ،وتوجيه رأس المال.

- **توجيه الثقافة :**

ولابد أولا من تعريف التوجيه ، فيعرفه مالك بن نبي بأنه قوة في الأساس وتوافق في السير و ;حدة في الهدف " [14] فكم من طاقات تتبدد بسبب أننا لم نعرف كيف نوجهها ونسددها مثل ما يسدد السهم أثناء الرمي، فان أحسنا التصويب والتسديد أصبنا الهدف وانم لم نكن كذلك انحرف الهدف فربما ينعكس عنا حتى ، إن مستوى التفكير الذي لا يقتضي التوجيه لا يفضي إلى سياسة فكرية قويمة، تنتهج سبيلها نحو التحضر بل التمتع بالتفكير الصحيح والراقي، على جميع الأصعدة و المسويات وباختلاف المناهج والأطر والمجالات.

فتعرف في لسان العرب لابن منظور على أنها " يقال ثقف الشيء وهو سرعة التّعلم .

ويقول ابن دريد " ثقفت الشيء أي حذقته.

في حديث الهجرة " هو غلام شاب لقن ثقف " [15]

العلامة فريد وجدي يقول في دائرة المعارف " القرن العشرين " المجلد الثاني ، ثقف يثقف ثقافة : فطن وحذق وثقف العلم في أسرع مدة أي أخذه، وثقفه ثقفا : غلبه في الثقف والتثقيف الحاذق الفطن "[16]

ويحدد مالك بن نبي الثقافة على مستويين :

المستوى الأول على حسب حالتنا الراهنة - الثانية على حسب مصيرنا .

لأن هذا يحدد بان جيلنا يسير وفق مسارين اثنين مسار النشاط من جهة ومن جهة أخرى مسار الركود .ويجب أن نتصورها وفق حالتين:

- تلك التي تصل بالماضي، أي بخلاصة التدهور، وتشعبها في الأنفس والأشياء .

- تلك التي تصل بخمائر المصير وجذور المستقبل .

وهذا يفهم الا من خلال طريقتين وجب وضعهما :

- سلبية تفصلنا عن رواسب الماضي
- ايجابية تصلنا بمقتضيات المستقبل

هي مبينة على مستويات عدة و نماذج متكررة عبر التاريخ فنموذج توما الإكويني ، وا القديس أوغسطين من بعد و ابن رشد و من بعد في الفلسفة الغربية، أبو الفلسفة هذه و هو روني ديكارت إنما هي أطر تحاول أن تفهم المسار التاريخي لتحرك لذاتها وفقا تيارات منطقية.

فثورة ديكارت لما كان الغرب يقتات كل يوم بالمنهج التّجريبي المادي، وهذا الامر لازم حتما للحضارة الإسلامية " ولعل هذه المسالة أصبحت منذ زمن قريب مسالة بحث وتأمل " ولأننا لنجد فعلا في روح الإصلاح التي هبت على العالم الإسلامي منذ محمد عبده وتلامذته كابن باديس، بشائر ذلك التحديد السلبي الذي حاولوا فيه تحطيم عللنا وعوامل انحطاطنا"[17]

ودستور الثقافة يقوم على مناهج ثلاث وتتمثل فيماي يلي :" الدستور الخلقي، الذوقي الجمالي، والمنطق العملي". وهي التي يبينها مالك بن نبي في كتابه مشكلة الثقافة بشكل معمق و مفصل و يذكرها كذلك في كتابه شروط النهضة بشكل مقتضب .فالأول " الأخلاقي " باعتبار أن الإنسان هو المتمايز بالأخلاق ورسالته تتحدد بالأخلاق " مصداقا لقوله صلى الله عليه و سلم إنما بعثت لأتمم مكارم الأخلاق "، هي التي

تجعل من المجتمع متماسك والفرد منضبط داخل أسرته وعائلته ويتعامل ويتفاعل مع أفراد مجتمعه بطريقة أخلاقية راقية " مصداقا لقوله تعالى وألّف بين قلوبهم لو أنفقت ما في الأرض جميعا ما ألّفت بين قلوبهم و لكنّ الله ألّف بينهم ، إنه عزيز حكيم " [18]

والمبدأ الآخر "الذوقي الجمالي " باعتبار أن الطبيعة لا تؤمن بما هو كائن فالإنسان له منطق يصنع من خلاله سينفونية الحياة بعيدة عن سيزيفية متمردة، و منطق صناعي عملي لتحديد أشكال النشاط العام.

- **توجيه العمل :**

وهذا المبدأ هو إقرار تام بمنطق الفاعلية التي يصنع من خلالها الفرد قوت يومه لقوله صلى اله عليه وسلم" ما أكل أحد طعام قط خير من يأكل من عمل يده، وإن نبي الله داود كان يأكل عمل يده" حديث شريف وحل مشكلة الإنسان يكون بهذه الثلاثية التامة والمفتوحة على مشاريعها الثلاث، والعمل باعتباره عنصر يحدد قيمة الإنسان، ومدى فاعليته داخل مجتمعه فهو يحاول دوما أن يكون الأفضل لكنه لن ينالها إلا بعد أن يعمل، " فكل جهد يستحق أجر"[19]. و كلمة أجر هنا تعني المقابل لهذا الجهد ،فبؤس أمة ما أو نعماؤها يكون بقدر ما تنتج من عمل، فلا خير في امة حسب مالك بن نبي إذا كانت تأكل مما لا تنتج، ولا ننتظر منها أن تكون امة فاعلة في التاريخ، بشعار " غير نفسك تغر التاريخ " أصنع نفسك تصنع تاريخك " هي معادلات مبنية وواضحة على الأساس الكوني والمفتوح على مساراته المختلفة والمتنوع و كل هذا يجعل من الفرد صحيحا ناعما متنعما، يسعد بما لديه من مكاسب حققها بمفرده، وتوحدت عنها أمته.

- **توجيه رأس المال :**

ويمكن أن نفرق بين رأسمال هنا و بين الثروة، أي أن بالنسبة لمالك بن نبي أن رأس المال هو الذي لا يكون لصاحبه بل يكون منتج المنفعل في الحدث الاقتصادي أي لا نقول " رأسمال فلان" وفي المقابل الثروة هو ما تم تكديسه" ويمكن قول هذه الثروة لفلان . ولقد انتقل المفهوم من المعنى الخاص بالثورة إلى المعنى الخاص برأس المال وينطلق مالك بن نبي من كارل ماركس ليبين مدى أفكاره حول رأسمال الحياة، ويذهب مالك بن نبي إلى أن الدرهم الذي يتحرك ويحرك ويدخل ويخرج هو الذي يسمى رأس المال، والمليار الساكن في مكان ما هو ما يسمى الثروة المتواجدة في مساحة ضيقة مختنقة محبوسة ومكدسة لا تنتج ولا تستثمر فرأس المال لا يتعلق بالكم بل بالكيف ،وأن همنا من أصبح كل قطعة مالية متحركة متنقلة تخلق معها العمل والنشاط أن الكم فان ذاك الدور الثاني دور التوسع والشمول.

- **التراب :**

التراب هو واحد من بين العناصر الثّلاث التي تكون الحضارة، و تصنعها، وما إذا توفرت الفكرة الدينية كما تكلمنا سلفا فان المر يتمتع بالتحضر الحقيقي المنطقي، حديثنا هنا ليس من الناحية الطبيعية أو التكوينية للتراب بل من الناحية القيمية الاجتماعية و كذا نمطية تفكير مالكيه، ويرى مالك بن نبي ان التراب لدى مالكيه في الدول المتقدمة مقارنة بالدول المتخلفة أنه يملك قيمة كبرى عندهم.

ففي العالم الإسلامي لا يأخذ نفس ما يأخذ لدى الغرب " إن التراب في أرض الإسلام عموما على شيء من الانحطاط ،بسبب تأخر القوم الذين يعيشون عليه ذلك أن الأرض الزراعية في بعض البلاد الجزائر بدأت تتقهقر رويدا أمام غزو الصّحرا ء، فكان الرمال تمتد هناك حيث كان يوجد قطعان الماشية، والأرض الخضراء " [20]

وهذا المنطق الفلسفي السوسيولوجي الذي يقدمه مالك بن نبي، قائم على مبدأ الاستثمار والفاعلية من طرف أفراد المجتمع الواحد، غير أن هذا قائم على وجود نفسية ثقافية، تسبر أغوار التحضر بمنطق العمل، والفعل الترابي، الحضاري، الذي يرمي إلى تقدم الأمم وكذا صناعتها لتاريخها وهيمنتها عن باقي الدول، لأن مجتمعه الذي ينتج هو الذي يغزو ويكون متبوعا لا تابعا فمنطق المقولة الاجتماعية لابن خلدون " المغلوب مولع بتقليد الغالب " منطق يتنبأ مالك بن نبي، وفكرة التراب هذه يضرب لنا مالك بن نبي مثال منطقة تبسة حين يقول" ولقد

شاهدت الصحراء قبل عشر سنوات جنوب مدينة تبسة ولكنها اليوم قد أصبحت شمالها ،وليس بمستبعد إذا ما واصلت الصحراء هذا التقدم، أنتكون عاصمة البلاد بعد قرن أو قرنين واحة محفوفة بشيء من النخيل تحيط بها الرمال" [21]

ونفهم من هذا أن التراب يبقى ما يتحدث عنه مالك بن نبي من خلال جملة الاراء والافكار التي يقدمها واقعيا سواءً في بلاد الاسلام من حدود " طنجة - جاكراتا ." ومدى عدم الاهتمام الواضح الا في بعض المناطق كالسودان مثلا، وفي المقابل كيفية استثمار التراب في الخط الممتد من " واشنطن – موسكو "، ولا يمكن أن نصنع التاريخ ولا نستطيع إنقاذ ذرياتنا إلا بالعمل الشاق ،ولما نجعل من الشجرة رمزا حضاريا بعيدا عن تهديد التلوث والرمال والتصحر والانجراف، نكون قد دخلنا باب التحضر واستثمار التراب قيميا.

الوقـت :

يقول النبي صلى الله عليه وسلم ما من يوم ينشق فيه الفجر إلا وينادي يا ابن آدم أنا خلق جديد ،وعلى عملك شهيد ،فاغتنم مني فاني لا أعود إلى يوم القيامة " حديث شريف، يجعله مالك بن نبي كمقدمة لفهم مسارات معنى الوقت وكذا اللاّ استثمار فيه لأن " الزمن نهر قديم يعبر العالم منذ الأزل " فهو يمر خلال المدن ، يغذي نشاطها بطاقته الأبدية، أو يذلل نومها بأنشودة الساعات التي تذهب هباءًا وهو يتدفق على السواء في أرض كل شعب، ومجال كل فرد بفيض من الساعات اليومية التي لا تغيض، ولكنه في مجال ما يصير " ثورة "، وفي مجال آخر يتحول إلى عدما فهو يمارق خلال الحياة ويصب في التاريخ تلك القيم التي منحها له ما أنجز فيه من أعمال "[22]

وفي الآن نفسه فهو نهر صامت، فإننا ننساه، وتنسى الحضارات في ساعات الغفلة أو نشوة الحظ قيمته التي لا تعوض.

فالوقت إنما يدخل في مشكلات الحضارة عند مالك بن نبي وهو احد العناصر الثلاث التي تؤسس للحضارة وتصنع قيمتها، هي محاولة منه لفهم مسارات التاريخ والأمم والمجتمعات على مدار التاريخ، لان الوقت لا يعني الزمن الطبيعي وكفى بل هو استثمار في الأطر الإنسانية، وكذا استثمار في المقدرات التي هي عبارة عن منحة مؤقتة قد تتحول إلى محنة مميتة في زمن قريب، فساعات العمل التي يلتفت إليها الفرد في وقت قريب منه أعني ساعات العمل هنا، فيُدرك المرء ما فاته من نتائج وإرادات كانت ستجعله بشر بل إنسانا متساميًا متعاليا فلا غرابة الحديث عن ساعات العمل التي جعلها مالك بن نبي صناعة للحضارة لأن في البلاد المسلمة نال الأفراد حضهم من هذا ولكن لما يدق ناقوس العمل وجرس النشاط نجد المرء الفرد المسلم لا يبالي بل لا يعير أي اهتمام بالتأخر ولا يحرص في مقابل الغرب ، كما أن الياباني إذا أضرب عن العمل كثف ساعات العمل لو ما قرناه بالعربي المسلم فان الإضراب عنده التوقيف عن العمل، والتنديد بشعارات التوقيف وشل كل الأعمال، وهنا يظهر الفرق بين الوقت في بلادنا والوقت في بلاد الغربي ، ويلفتنا الفلكي المسلم إلى فكرة تتلاق فيها فكرة بن نبي مع فكرته وهو " أبو الحسن المراكشي " لما أشار إلى التقدم و الزمن في العلم المعاصر".

فالوقت والحياة والتاريخ في ارتباط وثيق لا ينكره عاقل، و يشير مالك بن نبي إلى " أن وقتنا الزاحف صوب التاريخ لا يجب أن يضيع هباء كما يهرب الماء من ساقيته الخربة ...ولا شك أن التربة هي الوسيلة الضرورية التي تعلم الشعب العربي تماما قيمة هذا الأمر ولكن بأية وسيلة تربوية .." [23] هكذا جاء الوقت كفكرة أساسية تحاول أن تجعل الإنسان الذي يهتم بها ويوليها أهميته البالغة تجعله إنسانا حضاريا، وإنسانًا راقيًا، يستثمر النهر الذي يجري فوق رأسه على حد تعبير ابن خلدون.

- **الدور الحضاري عند مالك بن نبي وتعاقبه في بلادنا العربية " سنة كونية أم ابتلاء رباني :**

اعتبر مالك بن نبي أن الحضارة تمر على مراحل وأطوار ثلاث ، فالحضارة ما هي الا نتاج فكرة جوهرية تطبع على مجتمع مرحلة ما قبل التحضر ما يسمح لها بدخول التاريخ

ولا يكون هذا إلا من خلال الفكرة " فالفكرة المسيحية حسب مالك بن نبي أخلت أروبا إلى المستوى الحضاري كما أن كل من سقراط الذي بعث الحضارة الإغريقية من لخلا منهجه الفلسفي " التوليدي maieutique" وأرّخ لها أفلاطون وأرسطو الذي شرع لها.

إنّ الحضارة من منظور بن نبي خاصة الإسلامية مرت على مراحل ثلاث والتي تتمثل فيما يلي :

" الروح – العقل – الغريزة ".

- **مرحلة الرّوح** : "جدل اللاهوت واللاّناسوت "

هذه المرحلة بالنسبة لمالك بن نبي هي المرحلة الأهم من بين جميع المراحل و التي تعني دخول الإنسان قوة الإيمان كمرحلة مهمة متعالية تجعل الإنسان متأصلا ومتجذرًا بالقيم الأخلاقية التي تفرضها السماء " الدين " وهذا يأتي من خلال نداء " مالك بن نبي " بالفكرة الدينية " التّي تفعل العناصر الحضارية الثلاث " إنسان –تراب – وقت " ومن هذه المرحلة تأتي مرحلة أخر وهي:

- مرحلة العقل : أنسنة العالم وصراع التأويلات.

وهذه المرحلة أين يبدأ الإنسان في الابتعاد عن الدين البعد الروحي الذي يجعله إنسان فيدخل عالم المادة شيئا فشيء ومن هنا تنتقل المركزية من مركزية الدين إلى مركزية الإنسان وهي المرحلة التي عرفتها أروبا من خلال الانتقال من المرحلة المسيحية الكنسية " العصور المظلمة " إلى المرحلة العقلية، التي كانت كمرحلة مهمة في أروبا غير أن هذا الانتقال لا يمكن تطبيقه عن الحضارة الإسلامية لان هذا الانتقال أتى بثماره بعد أكاذيب رجال الدين والكنيسة الذين أتلفوا العقل وكان يعاقب كل من يخالفها وأكبر دليل وهو جيوردانو الذي أنار العالم بحرقه من طرف رجالاتها المتعنتين، والذين يفرضون رأيهم عن الآخرين مقابل صكوك الغفران التي يمنحونها للمتقين مسيحيا، وحسب مالك بن نبي أن مرحلة العقل هي مرحلة الانتقال من السماء إلى الأرض والتي تجعل الإنسان يهوى شيئا فشيء نحو منطق الآلة والأداة، والنتيجة قد تكون فساد في الأرض وتخريب.

- **مرحلة الغريزة : إعلان الأنا الناسوتية باسم التأنسن.**

وهي المرحلة التي يدخل فيها الإنسان عالم البهائمية وينسى ضرورياته ومهمته الدينية والدنيوية والتي تفرض نفسها عنه لكي يكون بشرا سويا، هذه المرحلة يحتكم فيها المرء إلى حب الشهوات والنساء والبنين والقناطير المقنطرة من الذهب والفضة والخيل المسومة والأنعام والحرث ويجعل الدنيا أكبر همه ومبلغ علمه، فلا فكرة تصلح ما لم تنتج لنا شيئا ماديا نلامسه ونتلمسه و نحيا به، كالسيارة والهاتف والأدوات في الوقت نفسه ننسى أننا بشرًا وهذه إنما هي زينة الحياة الدنيا، لا يطلبها الإنسان لذاتها بل هي وسائل لغايات متسامية، مطلوبة وضرورة ولكن لا يجب أن ننسى أنفسنا فيها أو نرى أنفسنا نحيا لأجل المادة والحياة المادية لأن غاية الإنسان الحقيقية تتمثل في التعمير الذي يصلح أن يجعل من الإنسان ذاته إنسان لا أن يكون تعميرًا يُنزل الإنسان من مقامه العالي إلى مقام الأشياء، وأفكارنا يجب أن نرى لها أثر فعلي صحيح ولكن لا نتنازل عن إنسانتنا لصالح أصنام نجعل منها أربابًا لنا ونعبدها ونتبتل إليها ونركع أمامها ونقدم أنفسنا ضحايا لها، على حد تعبير مالك بن نبي وهي الفكرة التي نجدها عند العالم النفساني من مدرسة فرانكفورت " لإريك فروم " ..الذي يذهب للقول بان الإنسان أعلى من كل ما هو منتج من طرفه فلماذا يكون المنتج هو أنا وأنا هو شيء لأن إنسانيتي تزول سرعان ما يزول الشيء.

ويرى مالك بن نبي أن الأمة الإسلامية مرت على مراحل ثلاث وهي تم الحديث عنها ويحدد هذا الأخير كل منها بمرحلة تاريخية إسلامية خاصة كانت كما هو مبين أعلاه هذا المخطط التالي:

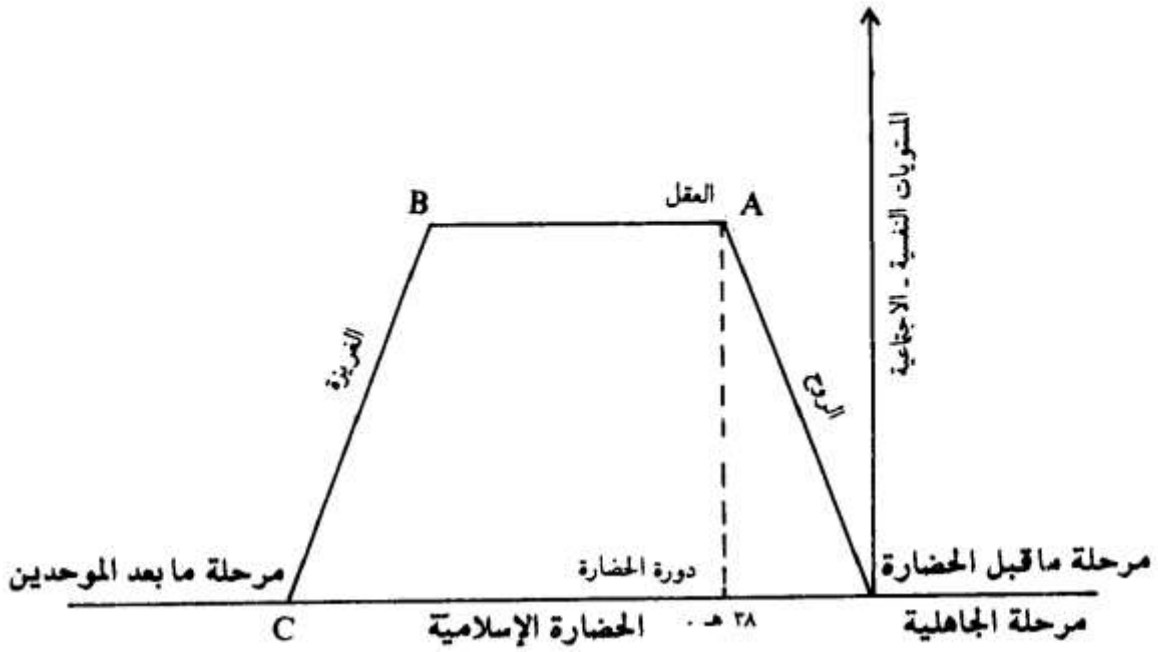

وهذا المخطط يبين المراحل النفسية والحضارية للحضارة الإسلامية، والتي تصف لنا مرحلة ما قبل التحضر، ومرحلة التحضر،ومرحلة ما بعد التحضر .

خاتمـة:

إن الحديث عن استراتيجية الحضارة وبناءها بالنسبة لمالك بن نبي مرتبط بالإنسان بدرجته الأولى ومتعلق تمام بمدى الأمة، ثم بعد ذلك كيفية إثمارها وفاعلتها للمعطى الحضاري، فالعالمية والكونية لم تظلم أحد من الأمم بتاتا، والأمة التي تعيش خارج السرب لم يكتب لها أن تكون كذلك، إلا لأنها رضيت لنفسها العيش في السفوح، والبقاء في المنازل الهاوية، والمراتب الدنيئة ، وكل امة تبغي التحضر لا يحجب ان تطلبه بل وجب أن تاخذه، لأن القضاء والقدر على مدى الإنتصار الحضاري والفكري والثقافي، ضمن ضوابط العلاقة لإجتماعية والتاريخية التي تقتضي الإبتعاد من الإنتكاسية ودخول الفاعلية والنشاط، من خلال إستمثار وتوجيه الحياة الثقافية بمبادئها الثلاث " الأخلاقي " و" الفني الجمالي ، وكذا العملي الصناعي" وهذا لا يكون إلّا من خلال فهم آليات التراب وإستغلاله وانبعاثه الحيوية من جديد في مقابل ذلك التعامل مع الوقت باعتباره إطار وجب العيش فيه لان العيش في التاريخ يقتضي العي ش في الزمن، وكل أمة لا تحترم عنصر الوقت لا تكون امة حضارية لأن الحضارة لا تحترمها و تولي لها أهمية ولا تلقي لها بال.

الإحالات:

[1]- حسين مؤنس، **الحضارة دراسة في أصول وعوامل قيامها و تطورها** المجلس الوطني للثقافة والآداب و الفنون، الكويت ط1، 1978م ص 335.

[2] - أنور الجندي، **الحضارة في مفهوم الإسلام** (القاهرة: دار الأنصار، د س ن) ص 06.

[3]- مالك بن نبي، **مشكلة الأفكار في العالم الإسلامي**، تر: بسام بركة، أحمد شعبو (ط2؛ دمشق: دار الفكر، 2002) ص 41.

[4]- مالك بن نبي، **في مهب المعركة** (ط4؛ دمشق: دار الفكر، 2002) ص 116.

[5] - هذه الأخيرة تتمثل في تمثلات الحضارة فكل حضارة تقاس على ثلاث نقاط و مبدئ أساسية لا يختلف فيها إثنان وهذا ما يبينه لنا ابن خلدون في مقدمته ، و ما يعتبر المفكر الجزاري "مالك بنم نبي " سوى إمتداد لابن خلدون ،و تبقى تجليات الفكر التاريخي ، غير محصورة في هذه الثلاثية لان الانسان يعيش متعدد الأبعاد وفي حياته البسيطة نجدها مترامية الأطراف و متناحرة الأسس والنمطيات التأسيس .

[6] - مالك بن نبي **" مشكلة الأفكار في العالم الإسلامي** " مصدر سبق ذكره ،ص ص:10.11.

[7] - مالك بن نبي **" مشكلة الافكار في العالم الاسلامي** " المصدر نفسه ص: 12.

[8] - مالك بن نبي ، "**شروط النهضة** " مصدر سبق ذكره ص : 30 .

[9] - الآية 11 **من سورة الرعد** .

[10] - مالك بن نبي ،**" شروط النهضة " المصدر** نفسه ص: 32 .

[11] -سورة البقرة ، الاية

[12]- مالك بن نبي **" مجالس دمشق "** ط2 ،دار الفكر للنشر و التوزيع ،دمشق ، 2006 ص 121.

[13] - مالك بن نبي ، **" شروط النهضة** " مصدر سبق ذكره ، ص : 75

[14] - مالك بن نبي ،**" شروط النهضة** " المصدر نفسه ص: 78 .

[15] - الحديث رواه البخاري أي ذو فطنة و دكاء و المراد انه ثابت المعرفة بما يحتاج اليه .

[16] - مالك بن نبي ، **" مشكلة الثقافة** " ترجمة : عبد الصبور شاهين ،ط4 دار الفكر دمشق ص :19

[17] - مالك بن نبي ، **" شروط النهضة** " مصدر سبق ذكره ، ص 81 .

[18] - سورة الأنفال الآية 63

[19] - مالك بن نبي ، **" شروط االنهضة** " المصدر نفسه ، ص :107 .

[20] - مالك بن نبي **" شروط النهضة** " المصدر نفسه ، ص : 131 .

[21] - مالك بن نبي ، **" شروط النهضة "** المصدر نفسه ، ص ن : 131

[22] - مالك بن نبي **" شروط النهضة** " المصدر نفسه ، ص:139 .

[23] - مالك بن نبي **" شروط النهضة** ، المصدر نفسه ، ص 140 .

[24] - مالك بن نبي **" مشكلة الأفكار في العالم الإسلامي** " مصدر سبق ذكره ص: 44